قصة كتاب تسبّب في قتل مؤلّفه:

«الرّدّ على الطّائفة الأندلسية والذّبّ عن الأصول المالكية»



د. يونس بقّيان

صفحات الكتب أعمار جديدة تخلّد أسماء أصاحبها في دواوين التاريخ، وتمضي بأفكارهم فوق عربة الأعمار؛ عمرًا عمرًا، حتّى ينتفع بها من أراد، ويعلّق عليها من شاء، ويستفيد منها المريد، بيد أن الكتابة صنعة صعبة إذا دأب عليها امرؤ يُحسنها أتعبته ونضّت عن بدنه رداء الراحة، وأحيانًا غسلتْ قلبه بماء الموت من أجل الخلود.

وصاحب الكتاب أعلاه، من أولئك الذين قتلتهم كلماتهم لتخلّد ذكرهم على صفحات التاريخ ورفوف الكتب، وقصته يتجاذبها صراع بين النّور والظلام، الحق والهوى، الحياة والموت.

في هذا السياق يندرج كتاب «الرد على الطائفة الأندلسية والذب عن الأصول المالكية»، لأبي العباس أحمد بن أحسن الورياكلي المعروف بالصغير (ق10هـ)، الصادر عن مركز إحياء للبحوث والدراسات بالقاهرة، عام 1446هـ، موافق 2024م بتحقيق د. يونس بقّيان، ذ. عبد الباقي العفاقي، والذي يقع في 96 صفحة من الحجم المتوسط.

في عصر التنافس على محراب العلم، والاختلاف في فهم نصوص الدين، في القرن العاشر الهجري؛ حيث تغلغلت الطائفة الأندلسية في أرض المغرب، وأحكمت الوثاق على العقول والأقلام؛ وُلد الورياكلي لأبوين ما عُرف عنهما نشاط أو صلة بالعلم والاشتغال به، في قرية صغيرة نائية تابعة لقبيلة بني ورياكل الصنهاجية شمال مدينة فاس؛ التي كانت رحمَ العُلماء ومهد المفكرين الأدباء؛ أنجبت هذه القبيلة أبناءً يندر أن يجتمعوا أو يخرجوا من قرية صغيرة اشتغل معظم أهلها بالفلاحة، أمثال الفقيه القاضي أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد الورياكلي(ت894هـ)، والعلامة المشارك القارئ بالسبع الحسن بن محمد بن أحمد الوَرْياكلي المعروف بكنْبور (ت1283هـ)، والفقيه القاضي إبراهيم بن عبد الرحمن الوَرْياكلي (ت1047هـ) وغيرهم...

ولعلّ هذا التاريخ الحافل قد حفّز والدي الوَرْياكلي فدفعاه إلى كتّاب القرية، ليستأثر بالقلم عن المنجل، فيحصد بذلك ثمار العلماء، ويذر لأبناء القرية ممن بلغوا سنّه حصاد ثمار الأرض وبذورها. ولقد كان أبواه يتفرّسان أن يكون ابنهما هذا ميّالًا إلى العلم، سبّاقًا إلى المعرفة، سالكًا سبيل الحق داعيًا إليه، ولأجل ذلك اختارا له اسم أحمد تيمنًا باسم الرسول الكريم صلى اللّه عليه وسلم.

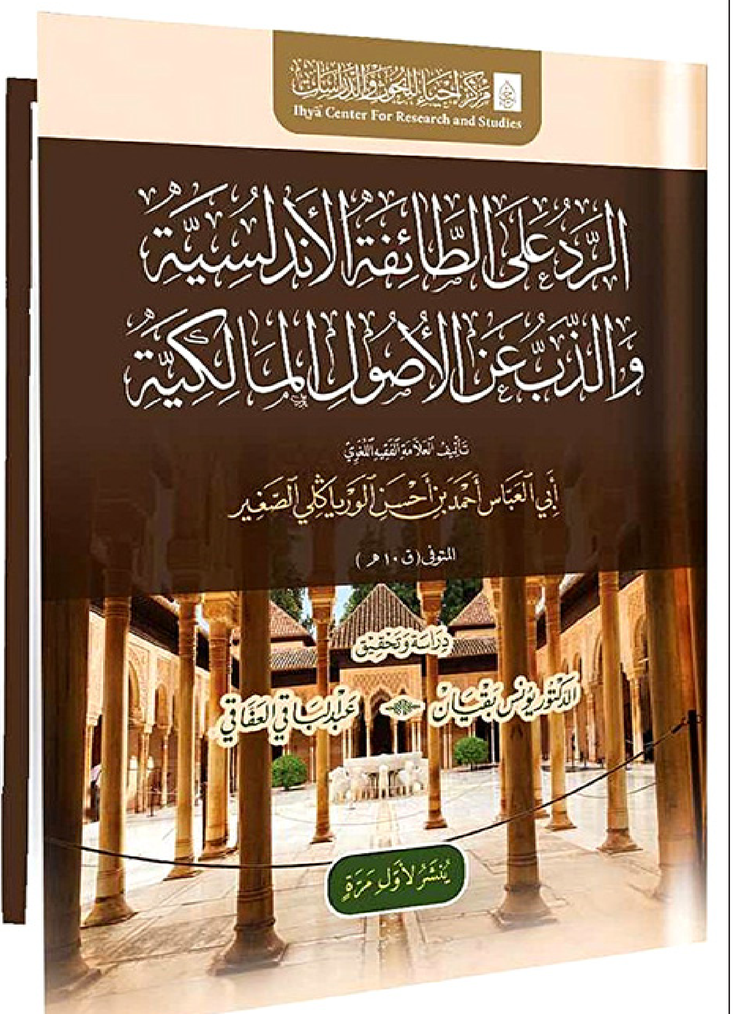
وكان الأمر كما أمل الوالدان؛ فوافق القدر نيّتهما وظهرت نجابة أحمد باكرًا، وبعد أن لمس أبوه فيه حدّة الذكاء وحصافة العقل، أرسله إلى فاس العلمية، من أجل صقل مواهبه، وبَرْيِ علمه. فتاج فاس علومها، وجواهرها علماؤها وفقهاؤها.

قرأ الوَرْياكلي على شيوخه بفاس العلوم الشرعية والعربية، بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة المغاربة في تقديم حفظه وحفظ المتون العلمية على دراسة الأوراق، فتدرج في تلقي العلوم الشرعية والعربية وبرع فيها، وكان كثير الاستقصاء، دائب السؤال والبحث والتّحرير.

وما كان الوَرْياكلي -على نباهته وفطنته - فريدًا وحيدًا؛ فلقد ازدهرت ريحانة العلم في عصره، وفاح عبق ميسمها عاطرًا، حتى بلغ أقاصي البلاد، وذلك لالتحام أبناء المهاجرين الأندلسيين، من ذَوي الخبرة والعلم بالمغاربة، ومن أجل التنافس بين علماء الزّاوية الدلائية وعلماء القرويين صارت فاس تعج بالعلوم والفنون، وراجت السّلع، فكان منها الغثّ والسمين، ولزِم لمن أراد سهمًا في تلكم السّوق الحذر والحيطة مخافة الغبن أو الخسارة.

وكذلك دخل الوَرْياكلي هذه السوق منبهرًا بكثرة السلع، ورواج البضائع، فصار يغترف من كل جراب، ويطرق كلّ باب، حتى ضجّت الأفكار في عقله، وامتلأ في قلبه حبٌّ وإعجابٌ لعَالم أندلسي؛ فكان يصاحبه ويلازمه، ويسمع مشاهداته ومروياته عن الفردوس المفقود والأرض المسلوبة، فتحنّ مشاعره، ويسرح عقله، حتى صار -إلى علمه وفطنته- تبعًا لهذا العالم الذي نُسبت له الطائفة الأندلسية.

أقام الوَرْياكلي منطقه وحجّته وبُرهانه مُدافعًا عن هذه الطائفة، دفعهُ لذلك قلبه المعجب بعالمها، وخَلَدُهُ الحالمُ بفردوسها ونعيمها المستلب، حتى بدا له بُطلان ما هو فيه، فأمعن النّظر وأعمل الفكر، فعلم أنّ الطائفة نسخة شائهة من الحزمية الظاهرية، لفّقها صاحبها ليكسب بها حظوة سياسية، بل استطاع بسبب دهائه أن يشكل حركة سياسية تناهض السلطة المركزية، فامْتطى المذهب الظاهري وشنّع على الفقهاء تشبّثهم بالنّصوص المذهبية وإعراضهم عن ظاهر الكتاب والسنة، وكان يسمُهم ومَن اتّبعهم بالمالكية، وينسب أنصاره إلى المحمدية، نسبة إليه لا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وغَالَتْ هذه الطائفة وتنطّعت، فأعمى اللّه بصيرتهم، وأُشرِبوا في قلوبهم الضّلال، فأصابهم القذى، وأنكَروا فضل الأئمة العلماء، وغيّبوا عقولهم، فنسفوا جهود الراسخين نسفا، وقالوا -افتراءً- هم رجال ونحن رجال؛ بل تجاسر كبيرهم على مقام الرسول الكريم صلى اللّه عليه وسلم ونقص من قدره الشريف بدعوى إفراد الخالق تعالى بالتّقديس، وإيهام النّاس بأنّ تعظيم النبي صلى اللّه عليه وسلم وذِكْر اسمه مع اسم الجلالة إشراك باللّه تعالى، وبهذا يكون قد دقّ آخر مسمار في نعش طائفته، حيث مسّ مبدأ العقيدة الإسلامية وطعن في أحد شقي كلمة الشهادة التي تشكل الركن الأعظم في الإسلام.


مركز إحياء للبحوث والدراسات
Ihya Center For Research and Studies
الرد على الطائفة الأندلسية والذب عن الأصول المالكية
تأليف العلامة الفقيه المغربي
أبي العباس أحمد بن أحسن الورياكلي الصغير
المتوفى (ق ١٠ هـ)
دراسة وتحقيق
ينشر لأول مرة

وإنّ خير الأصحاب عدوّ سابق، وأفصح مدافع مخالفٌ خبر الفكرة وعلم بَواطنها وظواهرها، وكُشف له سِتارها، وترصّد معالم الخطأ والزلة فيها، فإنّه متى أراد نسفها استطاع ذلك بيُسر وحكمة؛ لأجل ذلك كانت حجة الورياكلي قوية على أدعياء الطائفة الأندلسية، وكان تقريعه مؤلمًا، ما استطاعوا لردّه سبيلًا، فأشاحوا وجوههم وهم عنه يصدفون، وغسلوا أقلامهم عن مباراته، وكفّوا ألسنتهم عن جداله، فانبرى لنقض فرْيتهم وإبطال غوايتهم بالتّشنيع على أقوالهم وأفعالهم، وذلك بعد نصحه لهم بالرّجوع عن غيّهم، فلما سئم من كثرة نصحه لهم سرًّا راسلهم كتابةً ولم ينبس كبيرهم ببنت شفة، ولم يسمع لأتباعه همسًا ولا أحسّ منهم رِكزًا، فقرّر إظهار الحقّ في العلن بردٍّ رصينٍ هادئ، وهو الذي لا يخاف في اللّه لومة لائم.

ففضح خباياهم، وأعرب عن قبح منهجهم وفساد مبادئهم وأفكارهم، ثم عرض أقوالهم بأمانة، فناقشها مناقشةً علميةً في ضوء القواعد المتّفق عليها دون شططٍ أو مبالغة، فَفلّ المحزّ وأصاب المفصل، وهو الخبير بهم وبأسرار طائفتهم.

والعادة أنّ أهل الباطل ما إن تقوّى أهلُ الحق عليهم؛ أظهروا خبثًا وفسادًا، والتاريخ شاهد عليهم في كل حكاية وخبر؛ فحين أعجز الوَرْياكلي أهلَ الطائفة بالرّد، تواطؤوا لإسكات صوته، فقتلوه. ولكن أجله ما انتهى بموته؛ فإن التاريخ لا ينسى، والصحائف من الحبر لا تجفّ، ولقد خُلّدت صفحات الورياكلي شاهدة على براءة ذمته، وتبليغ رسالته، وكذلك الأعمال إن صفت نيّاتُها أصابت.

ثم إن هذه الطائفة استمرت في نشر ضلالها إلى عهد المولى إسماعيل (ت1139هـ) الذي بسط ملكه على أرض المغرب كله وأصبح تحت سيطرته، فتزيّلت الطائفة وَآوَتْ إلى رُكن التّقية والتّستّر، وانحصرت في البوادي بعد أن تصدّى المولى إسماعيل للتّنكيل بالمبتدعة على أثر ما كتبه صاحب «تبصرة الرئيس الأمين في ذكر شروط إمام المسلمين»، وما كتبه العلامة عبد الكبير اعليوات في «سراج الغيوب»، واليوسي في «رسالة العكاكزة». واللّه ولي التوفيق.